

The Role of ibn-al-Nafis in Anatomy

By:

Abdul Nasser Kaadan, MD, Ph D*

ابن النفيس ودوره في علم التشريح

إعداد

الدكتور عبد الناصر كعادن*

**Chairman, History of Medicine Department, Aleppo University*

The President of ISHIM (www.ishim.net)

P.O. Box: 7581, Aleppo, Syria

e-mail: a.kaadan@scs-net.org

Phone 963 944 300030, Fax 963 21 2236526

* أستاذ ورئيس قسم تاريخ الطب - معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب.

رئيس الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي (www.ishim.net)

دكتوراه في تاريخ الطب العربي الإسلامي - طبيب استشاري في جراحة العظام.

هاتف 963 944 300030 ، بريد إلكتروني: a.kaadan@scs-net.org

يجمع كل الباحثين في تاريخ الطب على أن الأطباء العرب الأوائل، قد اضطلعوا بدور هام ورئيسي في تطوير المعارف والعلوم الطبية، وذلك إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية والتي امتدت فترة ثمانية قرون. وذلك من خلال ترجمة كل تلك المعارف الطبية المعروفة وقتها إلى اللغة العربية، ثم ما أضافوه لهذا العلم من خلال ما اكتسبوه من خبرات نتيجة لممارستهم الطب في البيمارستانات التي كانت منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

بالرغم من هذه الحقيقة، فإنه ما من أحد يجادل في أن التراث الطبي العربي الإسلامي لم يتم بعد دراسته على نحو يبرز دور هذا التراث الحقيقي في تطوير علم الطب، خصوصا تأثيره في مرحلة عصر النهضة الأوروبية. وحتى الآن لم يتم التعرف إلا على جزء يسير جدا من هذا النتاج الفكري الهام. فأغلب ما كتب في مجال الطب خلال تلك المرحلة لا زال مخطوطا قابعا في زوايا المكتبات الخاصة أو العامة، والموزعة في كل أرجاء العالم، لم ير النور بعد.

وابن النفيس الدمشقي (607هـ / 1210م - 687هـ / 1288م) يعتبر أحد هؤلاء الرواد الذين كان لهم دور هام في تقدم العلوم الطبية. ولعل أهم مساهماته الطبية هي المتعلقة بعلم التشريح والفيزيولوجية والتي صحح من خلالها كثيرا من الأخطاء التي أخذها العرب عن العلماء والأطباء اليونانيين، وقد شكل ذلك نقطة البدء في تفهم ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى أو الدوران الرئوي وشرح ذلك بالتفصيل، وذلك قبل الطبيب الإنكليزي وليام هارفي بحوالي أربعة قرون. ترجع شهرة ابن النفيس العالمية كمكتشف الدورة الدموية الصغرى إلى كتابه المسمى (شرح تشريح القانون). ففي هذا الكتاب قام ابن النفيس بشرح المفاهيم التشريحية التي وردت في كتاب القانون في الطب لابن سينا، مبتدعا كتابه بمقدمة شملت خمسة فصول تحدث فيها ابن النفيس عن فوائد علم التشريح وأهميته لكل من يعمل في مجال الطب، وبين أن هذا العلم ضروري خصوصا لمن أراد أن يعمل في مجال الجراحة. وأكد في فصل آخر على مدى التصاق علم التشريح بعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجية)، وبين أنه لا يمكن لعلم وظائف الأعضاء أن يستخرج إلا عن طريق التشريح.

بعد هذه المقدمة تعرض ابن النفيس بالحديث عن التشريح العام، وهو يشمل تشريح العظام والمفاصل والعضلات والأعصاب والأوردة والشرايين، ثم تعرض بالحديث عن التشريح الخاص وقد عنى به تشريح الأعضاء الداخلية في جسم الإنسان.

لدى استعراض ما كتبه ابن النفيس في كتابه هذا في مجال التشريح، فإننا نلاحظ أسلوباً لم نعهده عند غيره ممن سبقه من الأطباء العرب. فلقد كانت المفاهيم الطبية التي أخذها العرب عن أسلافهم اليونانيين تعتبر بمثابة الحقائق العلمية التي لا يرقى إليها أدنى شك، بل لقد كانت محاطة بهالة من القدسية بحيث لا يستطيع أحد نقدها أو مجرد التشكيك بها. وذلك إلى أن أتى ابن النفيس فتجرأ على انتقاد تلك الآراء، وذلك بعد أن بينت له ملاحظاته وتجاربه بطلان كثير منها. حيث أنه كثيراً ما كان يردد في كتابه هذا عبارات مثل: "إن التشريح يكذب ما قالوه، وهو عندنا باطل، إن هذا الكلام مما لا يصح، وأنا أرى غير ذلك...".

ولكي نتبين المدى الذي توصل إليه ابن النفيس في مجال علم التشريح مقارنة مع الأطباء الغربيين حتى الذين أتوا بعده، فإننا نشير كمثال على ذلك ما ذكره ابن النفيس في مجال تشريح القلب، يقول في ذلك: "قوله -أي ابن سينا- وفيه ثلاث بطون، هذا الكلام لا يصح. فإن القلب فيه بطنان فقط. أحدهما مملوء بالدم، وهو الأيمن، والأخر مملوء بالروح وهو الأيسر. ولا منفذ بين هذين البطينين البتة، وإلا كان الدم ينتقل إلى موضع الروح فيفسد جوهرها. والتشريح يكذب ما قالوه. فالحاجز بين البطينين أشد كثافة من غيره لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو من الروح فيضيع. فلذلك قول من قال: إن ذلك الموضع كثير التخلخل باطل، والذي أوجد له ذلك ظنه أن الدم الذي في البطن الأيسر إنما ينفذ إليه من البطن الأيمن من هذا التخلخل، وذلك باطل فإن نفوذ الدم إلى البطن الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخينه وتصعده من البطن الأيمن كما قررناه أولاً".

لنقارن ذلك مع ما قاله أندرياس فيساليوس **Andreas Visalius** الذي عاش في القرن السادس عشر (أي بعد ابن النفيس بثلاثة قرون)، والذي يعتبر أحد أهم رواد علم التشريح في عصر النهضة الأوروبية. ففي كتابه الشهير (مصنع جسم الإنسان)، والذي صدرت طبعته الأولى عام 1543 في سويسرا، يقول في معرض حديثه عن الحجاب بين البطينين في القلب: "إنه حجاب كثيف جدا لا يحتوي على أية فتحات يمكن أن نراها، لذلك يجب علينا أن نقف مندهشين أمام قدرة الخالق وتساءل كيف أن الدم ينتقل من البطين الأيمن إلى الأيسر من خلال فتحات لا يمكن لنا مشاهدتها".

أما في الطبعة الثانية من هذا الكتاب، والذي نشره فيساليوس عام 1555، فإنه استدرك خطأه قائلاً:
"إن هذا الحجاب السميكة لا يسمح بمرور الدم من البطين الأيمن إلى الأيسر وأنا لا أعتقد بوجود
فتحات صغيرة تؤمن هذا النقل، بالرغم من أن هذه الفتحات وصفها أساتذة التشريح الذين قرروا
بشكل قاطع أن الدم يمر من الأيمن إلى الأيسر، فإني أشك كثيرا في هذا الكلام".

من ذلك كله نلاحظ مدى التفوق الذي حققه ابن النفيس حتى على من أتى من بعده من كبار
الأطباء المشرحين في الغرب، وليس هذا إلا مثالا على ذلك. وكتابه شرح تشريح القانون مليء بتلك
الأمثلة.

المهدف من هذا البحث هو الوقوف على إنجازات ابن النفيس في مجال علم التشريح حتى وصل
للشكل نشهده اليوم، شأنه في ذلك شأن كل الأطباء العرب المسلمين الذي كانت لمساهماتهم الدور
الكبير للأساس الذي بنت عليه أوروبا حضارتها الحديثة.
